أبو تمـــام شيخ البيان

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

هو حبيب بن أوس الطائى، وقد سبقه إلى صناعة البيان بشار ومسلم والحسن بن هانى، ولكنه ظهر بها ظهوراً كبيراً وحاكاه البحترى وغيره، وكان حقيقاً بسبب كثرة إجادته فى تلك الصناعة أن يسمى شيخ البيان. وكان أبو تمام يقدم الحسن بن هانى ويلقبه بالأستاذ وبالحاذق ويجاريه فى طريقته، ولكن أبا تمام قد بز ابن هانى أبا نواس فى المدح ووصف الطبيعة، وإن لم يكثر منها وفى الرثاء والأمثال والحكم، وجاراه فى وصف الخمر والغزل المذكر. وقد سُئل البحترى عن أبى تمام وعن نفسه فقال: جيده خير من جيدى ورديئى خير من رديئه. وهى قولة حق، فقد كان عند البحترى من حذر ذوى الصناعة وإحجامهم ما لم يكن عند أبى تمام الذى كان أكثر جرأة فى صناعته. ولم يكن رديئه القليل عن جهل، فقد سئل فيه فقال: إن أبيات الشاعر كأبنائه فيهم الجميل وفيهم القبيح وكل منهم حبيب لدى أبيه الذى يعرف أيهم القبيح وأيهم الجميل. ولقد قال فى إساءة ظن الشاعر بشعره ويعنى نفسه:

ويسىء بالإحسان ظناً لا كمن هو بابنه وبشعره مفتون

ولكنه يقول أيضاً:

من كل بيت يكاد المَيْتُ يفهمه حسناً ويعبده القرطاس والقلم

ولا غرابة فى أن يكون قائل البيت الأول هو قائل البيت الثانى، فإن نفس الشاعر قد تتردد بين الثقة بقوله ثقة ليس بعدها ثقة، وبين الشك كل الشك فى مرتبته. ولعل هذا الشك وإساءة الظن مما يحفزه على استئناف الإجادة وإلى الاستزادة من الإبداع كيلا يستنيم إلى ما أجاده من سابق قوله. والشاعر الجرىء فى صنعته البيانية يكون نصب نقد الناقدين، وعندما مدح أبو تمام أحمد بن المعتصم بقصيدته التى مطلعها: (ما فى وقوفك ساعة من باس) أنكر بعض النقاد أن يشبهه بمن هم أقل منه منزلة فى قوله:

إقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

ومثل هذا النقد يهدم صناعة التشبيه من أساسها لأنه لم يشبه الممدوح بهم فى المنزلة، وإنما يكون للتشبيه وجه شبه خاص لا يتعداه اتفاق المشبه والمشبه به، وهذا النقد يدل إما على الإفراط فى تملق الممدوح والمغالطة مع علم، وإما على جهل بالصناعة البيانية. وقد دفع أبو تمام حجتهم بأن زاد فى المديح قوله:

لا تنكروا ضربى له مَنْ دونه مثلاً شرُوداً فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

وأمثال هذا النقد اللفظى كثير فقد انتقدوا أيضاً قول أبى تمام:

دنيا ولكنها دنيا ستنصرم وآخر الحيوان الموت والهرم

وقالوا: إن الهرم يأتى قبل الموت ولكنه أخره وقدّم الموت. وهذا اهتمام بالصغائر، فقد كان فى استطاعة الشاعر أن يقول: (وآخر الحيوان الشَّيْبُ والعَدَم) وقد فعل المتنبى ما هو أشد من ذلك وكانت له عنه مندوحة عند ما قال:

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم شيم على الحسب الأغر دلائل

يعنى جفخت أى نخرت بهم وهم لا يجفخون بها، وكان يستطيع أن يقول: (نخرتْ بهم وهُمُ بها لم يفخروا) فيستقيم

الجمع والمزج والترتيب والتعليل. فهى مصادر لتاريخ الأدب لا تاريخ

ومن الكتب التى ألفت على هذا النمط:

١ — طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى المتوفى سنة ٢٣١

٢ — الشعر والشعراء لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦

٣ — معجم الشعراء للمرزبانى المتوفى سنة ٣٨٤

٤ — يتيمة الدهر فى شعراء العصر لأبى منصور الثعالبى المتوفى سنة ٤٢٩

٥ — الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الأندلسى المتوفى سنة ٤٢٩

٦ — دُمية القصر لأبى الحسن الباخرزى المتوفى سنة ٤٦٧.

٧ — قلائد العقيان } للفتح بن خاقان الأندلسى المتوفى

٨ — مطمح الأنفس } سنة ٣٣٥

٩ — سلافة العصر فى محاسن الشعراء بكل مصر لصدر الدين المدينى من رجال القرن الحادى عشر

١٠ — ريحانة الألباء لشهاب الدين الخفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩

— ٤ —

وتاريخ الأدب كما نعرفه اليوم عرفه الأوربيون فى عصر نهوضهم؛ سبق إليه الإيطاليون وسار على أثرهم الأمم الأخرى ولا سيما الفرنسيون. ولهم فيه طرائق مختلفة مبنية على مذاهبهم فى النقد وقد قدمنا إشارة إليها

عبد الوهاب عزام

الوزن والأسلوب ولكن هذا لا يؤخر الشاعر الكبير ولا يقدمه. ومثل هذا النقد يثرى به الشعراء أنفسهم عند الملاحاة فقد ورد فى كتاب العمدة لابن رشيق أن مسلم بن الوليد انتقد قول أبى نواس ذكر الصبوح بسحرة فارتاحا وأمله ديك الصباح صياحا وقال: كيف يجتمع الارتياح والملل ؟ كما انتقد أبو نواس قول مسلم عاصى الشباب فراح غير مُفنّدٍ وأقام بين عزيمة وتجلد وقال كيف يجتمع الرواح والإقامة ؟ وفى كل من البيتين يريد الشاعر اجتماع حالات نفسية مختلفة الأسباب . على أن أبا تمام قد يأتى فى الفلتات بما لا يستجاد مثل قوله :

بلد الفلاحة لو أتاها جَرْوَلٌ أعنى الحطيئة لاغتدى حَرّاثا

و (أعنى) هنا أثقل من الرصاص

وقد عد بعض أدباء العصر أبا تمام من شعراء الرمزية ، وهذا فى رأيى غير صواب، لأن كل شاعر يستخدم الرموز، ولكن ليس كل شاعر من أدباء الرمزية . وأستطيع أن أفهم سبب عد أبى تمام من شعراء الرمزية ، وإن لم يكن كذلك ، فإنه يكثر من استخدام التشبيه والاستعارة والمجاز، فالاستعارة رمز والكناية رمز. ولكن شعراء الرمزية فى أوربا تخطوا منزلة الاستعارات والكنايات وصاروا يرمزون إلى حالات نفسية بأشياء مادية وبألفاظ أو جمل، ويقطعون الصلة بين الرموز وما يرمز لها بها اعتماداً على خيال القارئ وإحساسه وأحلامه وهواجس نفسه الغامضة ، وأحياناً يستخدمون رموزاً مدلولها أشياء مادية ويرمزون بها إلى تلك الهواجس الغامضة فى الوعى الباطن ،وهى لغموضها لا تستطيع عقولهم الظاهرة تفسيرها إلا بتلك الرموز. وهذه طريقة لم يكتب فيها شاعر عربى. أما طريقة أبى تمام فهى طريقة الصناعة البيانية المألوفة وإن كان قد أبدع وأغرب فيها، وشعره شعر الخيال المشبوب بنار الشاعرية، والجيد من شعره يجمع بين القوة والحلاوة وإقناع الصنعة الفنية، وهى ليست صنعة ألفاظ فحسب بل صنعة ألفاظ وخيال وإحساس وذكاء وعقل وبصيرة. ونرى فى قوة الجيد من شعره قوة الخطيب، ولا أعنى أن الشاعر خطيب فللخطيب صفات قد تدابر صفات الشعراء ، وإنما أعنى أن لشعره قوة تشبه وقع خطاب الخطيب فى الأذن فكأن له صوتاً يسمع. وإذا كان للشاعر نفسه من صفات الخطيب فهى الصفات التى يقترب الخطيب فيها من عبقرية الشاعر ومن بصيرته النافذة وخياله المشبوب، وليست الصفات التى يقترب فيها الخطيب من فن الممثل وهى صفات عالية فى فنها وفى الخطابة . ولا نأسف لإضاعة شاعر من شعراء العرب فى التكسب بالمدح شعراً كان يكون أعظم شأناً فى وصف الحياة والنفس قدر ما نأسف لإضاعة أبى تمام، فإن الرجل كان قادراً على أن يبلغ ما بلغه شعراء أوربا من وصف الحياة والنفوس ومظاهر الكون ؛ على أن فى شعره فى المدح أشياء من هذه الأشياء . ولعل القارئ يقول : ولماذا لا نأسف على المتنبى قدر أسفنا على أبى تمام أو أكثر ، وليس المتنبى بأقل منزلة وهو ذو بصيرة وخيال . ولكن أبا تمام كان عنده من نشوة الصناعة البيانية أكثر مما كان للمتنبى ؛ وكان للمتنبى من قوة الشخصية وإثرتها أكثر مما كان لأبى تمام ؛ وقوة الشخصية هذه لها أثر فى الشعر يظهر فى كل أبوابه وتجعل الشاعر يترك بعده دوياً كما قال المتنبى :

وتركك فى الدنيا دوياً كأنما تداول سمع المرء أنملُهُ العشرُ

أما أبو تمام فإننا نقرأ أنه كان مولعاً بالخمر إلى حد الإفراط أحياناً ، ونقرأ أنه سكر مرة فى مجلس عظيم وعربيد وحُمِلَ من المجلس بين أربعة ، وأنه كان إذا أخذ صلة أمير أفناها بين الغناء والموسيقى والرياض والخمر والأوجه الوسيمة . وهذه الأمور ربما كانت تقلل نتاجه وتلهيه عن الشعر لو أنه لم يكن مضطراً إلى قرض الشعر فى المديح أو الرثاء لكسب المال، فإننا عند ما نقرأ سيرة الرجل وشعره نميل إلى الاعتقاد أن الحياة عنده كانت شعراً يُعاشُ وأن الشعر عنده كان حياة تكتب أو شعراً يكتب ، وأنه ما كان يلجأ إلى الشعر الذى يكتب إلا إذا سمح له أو اضطره شعر الحياة الذى يُعَاشُ. ولعل هذا هو سبب إقلاله وسبب موته وقد تخطى الأربعين قليلاً. وإننا نتساءل ماذا كان يكون نتاجه لو كان من المعمرين من غير أن يفنى قدرته الحيوية بالحياة ؛ ولكن من العبث التأسف ، فلعل إفناءه قدرته الحيوية بالحياة كان من لوازم نشوته الشعرية ، وإن قدرته فى صناعة البيان كانت من مظاهر انتشائه بالحياة ، وانتشاؤه بالحياة ميز شعر التكسب فى قوله عن شعر التكسب فى أقوال الشعراء الكثيرين ، فشعر التكسب فى قولهم ألفاظ ميتة مهما حاولوا إحياءها بصناعة البيان أو بالأناقة، وكانت قوة شعره مستمدة من انتشائه بالحياة، فلم تكن قوة كتلك القوة فى شعر بعض الشبان المبتدئين الذين يقتلون القوة فيخيل للقارئ أنهم يخنقون ألفاظهم ومعانيهم كى تصيح كما تصيح الدجاجة إذا حاول الطفل الصغير أن يخنقها ، وكانت ألوان